مجلة جامعة نزوى للدراسات والبحوث العلمية
المجلد الثالث - العدد الثالث ص ٣ الى ٤٣

المحرم ١٤٠١
نشرين الثاني ١٩٨

ابن سينا. الحسين بن عبدالله أبو علي

الدكتور حسني ناعسه
كلية الآداب

يعد ابن سينا من أبرز العلماء ذوي الثقافة الجامعة، والتأليف البارع، والاسلوب الرصين، ويستطع دارس آثاره أن يسلكها في ثلاثة ألوان

أولها ثقافته العلمية من طب ونفس وطبيعة وفلك ورياضيات وثانيها ثقافته الفلسفية والصوفية وتشمل ماله من بحوث فيما وراء الطبيعة والحكمة والمنطق والاخلاق والنبوة والسياسة . وثالثها ثقافته الادبية وما تنطوي عليه من تفسير ومناظرات ولغة وصوتيات ونقد وبحوث ورسائل وسيره ذاتية وقصة قصيرة وشعر .

يسلك أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (٣٧٠ – ٤٢٨ هـ)في أبرز العلماء أولي الثقافة الشاملة ،والتأليف البارع ،والاسلوب الرصين ،وقد زادت موءلفاته على مائتي كتاب ورسالة ،وذاعت شهرته ،وأطلق عليه لقب الدستور ،وحجة الحق ،وشرف الملك ،والشيخ الرئيس ،والحكيم الوزير ،والمعلم الثالث للانسانية . وقدرت الاجيال الحديثة جهوده الثقافية فأقامت الجمعية المصرية لتاريخ العلوم مهرجانا بمناسبة العيد الالفي لميلاده وعقدت استانبول ،ثم بغداد ثم طهران ،موءتمرات عالمية لاحياء ذكره ،وها هي ذي دمشق الفيحاء تأتسى بتلك العواصم الاسلامية ،فتعقد هذا الموءتمر الدولي لبحثه استشعارا بجهود اسلافنا ،وشحذا لهم ابنائنا ،لعلهم يضاعفون العمل ويزداد اسهامهم العالمي في مجالات الفكر والعلوم والصناعات .

ويستطيع من يدرس ثقافة ابن سينا ان ينظمها في ثلاثة الوان .

أولهما : ثقافته العلمية ،من طب ،ونفس ،وطبيعة ،وفلك،ورياضيات وكيمياء ،وموسيقا .

وثانيها: ثقافته الفلسفية والصوفية ،من الالهيات،وحكمة ومنطق وتصوف ،وأخلاق ،ونبوة وسياسة .

وثالثها: ثقافته الادبية وما تنطوي عليه من تفسير ومناظرات ،ولغة وصوتيات ونقد وبحوث ،ورسائل ،وسيرة ذاتية وقصة قصيرة وشعر ولابأس أن أقف على كل منها بشيء من التفصيل .

١ – ثقافته العلمية : يأخذ هذا المجال من تأليف ابن سينا حيزا كبيرا ،فقد كتب فيه القانون في الطب ،ودفع المضار ،وجزءا من الشفاء ،والنبات والحيوان ،ورسالة في الهيئة ،أي الفلك واسباب الرعد والبرق ،والمدخل الى صناعة الموسيقا .

وقد امتاز قانونه بالدقة العلمية واحكام الترتيب وحسن التبويب وتحدث فيه عن وظائف الاعضاء وعلوم الامراض والصحة والعلاج والادوية . ونقل هذا السفر الى اللاتينية واللغات الاوربية ،وظل مصدرا هاما لاطباء العصور الوسطى ،وأساس تعليم الطب في كل جامعات أوربا حتى منتصف القرن السابع عشر.

ومن لطيف ما عنى به هذا الطبيب النطاسي العلاج النفسي

وآزر هذه العناية أنه كان يخوض في علوم النفس وأحوالها والحق أن القارئ يأخذه العجب وهو يطلع على الجانب التربوي عنده ،فقد أشار الى أهمية الانتباه في التذكر ،وأن الصبيان اكثر حفظا لان نفوسهم غير مشغولة بما تشغل به نفوس البالغين ،وحذر من تعريض الاطفال الى غضب او خوف او غم شديد .

واهم التي بحث فيها الطبيعيات كتاب الشفاء ،ولم يفرده لها ، اذ درس الى جانبها الرياضة والمنطق ،وما بعد الطبيعة ويهمنا هذا القسم الذي تناول فيه الطبيعيات والنبات والحيوان والمعادن فقد تكلم على الجبال ،وذهب الى انها تكونت من طين لزج جف على طول الزمان ،وتحجر في مدد لايمكن ضبطها وكأنما هذه المعمورة كانت في سالف الايام غير معمورة بل مغمورة في البحار ،فتحجرت في مدد لاتفي التأريخات بحفظ أطرافها ،واعقب ذلك كلامه على الزلازل وسرعة الصوت وسرعة الضوء والسحاب والطل والصقيع والثلج والبرد والضباب والهالة وقوس قزح والشميسات والنيازك والرياح والبرق والرعد .

ودرس ابو علي النبات في موضعين اساسيين ،درسه مرة عندما تحدث عن الادوية المفردة في كتاب القانون (١) فوقف على العقاقير النباتية ،والنباتات الشجرية والعشبية والزهرية والفطرية والطحلبية ،ومواطنها ،والاتربة التي تنمو بها ،وفرق بين النبات البستاني والنبات البري . ودرسه مرة اخرى في كتاب الشفاء ،فتحدث عن تولده ،وذكره وانشاه ،وذهب الى ان النبات قد شارك الحيوان في الانفعالات المتعلقة بالغذاء وافاض القول في التطعيم ووسائله المختلفة ،واطرف ماله في هذا العلم ، انه شخص النبات معتمدا على عصارته ورائحته وطعمه .

ووصف ابن سينا في الجزء الخاص بالحيوان انواعه المائية والبرية ،وأعضاءها المتشابهة وغير المتشابهة ،والعظام والغضاريف والرباطات والشرايين والاوردة والاغشية والالياف العصبية والرئة والقلب وانتقل الى التشريح المقارن بين الحيوانات المتنوعة والطيور والاسماك .

واهتم في قسم المعادن بمشكلة تحويل المعادن الخسيسة الى معادن نفسية ،وهي مشكلة كانت مثارة بقوة في عصره فرأى ان ما يدعيه اصحاب الحيل والكيمياء من قدرتهم على هذا التحويل ما هو الا ضرب من الختل والخداع ،فهم لايستطيعون قلب الانواع قلبا حقيقيا ،لان جواهرها لاتتغير ،وقسم الاجسام المعدنية الى احجار وذائبات وكباريت واملاح .

ومن يتابع آثاره في سائر معارفه العلمية من فلك ورياضيات وكيمياء .. ينته الى انه كان مجلياً فيها جميعاً، وان كشوفه وابتكاراته فيها قد أورثت الانسانية ذخرا نفسيا وكنزا لايقدر بثمن .

٢ - ثقافته الفلسفية والصوفية :

ألف ابن سينا في هذا اللون الثقافي كتابه الشفاء ،ثم اختصره في كتاب النجاة ،وألف فيه اسرار الحكمة المشرقية والمعاد والانصاف ومنطق المشرقيين والاشارات والتنبيهات، والعشق والتعليقات وتحصيل السعادة ،واثبات النبوات والسياسة، وبحوثا كثيرة اخرى في الإلهيات والحكمة والمنطق والتصوف والاخلاق والنبوة والسياسة .

ومن الحق ان ابن سينا لو اقتصر على ثقافته الاولى العلمية وصرف في دراستها تلك الاناء الطويلة التي صرفها في تحصيل الفلسفة والاشتغال بها ،لكان اجدى له وللانسانية ،كان اجدى له لانه كان سيحتفظ بشخصيته المستقلة المتميزة ،ولا يغدو تبعا لارسطو ،كلا عليه في كثير من آرائه الفلسفية .

وكان أجدى للانسانية ،لان ابن سينا أراد ان يوحد بين شيئين يستحيل اتحادها ،وهما الوثيقة اليونانية والديانة الاسلامية ،ولم يتحر ان يأخذ الدين من مصدره الوحيد وهو الوحي الالهي ،وظن ان العقل وحده يعصمه ،وغفل عن ان ماجاء به العقل في هذه الشوءون قد هدمه العقل نفسه ،فخالف من قديم افلاطون استاذه سقراط ،ثم جاء ارسطو فتتلمذ لافلاطون عشرين سنة في اكاديميته ،ثم لم يلبث ان خالفه ،وبث آراءه المنشقة في معهده ((اليسيوم)).

وكأن اعجاب ابن سينا بأستاذه اوهمه بأن كل مايقوله صحيح ،سواء كان في علوم الحياة ،وفي الإلهيات ويوم القيامة وعالم الغيب ،فتأثر به ونشط في تبني كثير من آرائه ولازم مناهجه ،فاذا به يدلي بفكر تخالف الدين الحنيف خلافا خطيرا .

من ذلك ان المسلمين يعتقدون بشمول علم الله للماضي والحاضر والمستقبل ،وان الله لاتخفى عليه خافية ،((ويعلم ما في البر والبحر ،وما تسقط من ورقة الا يعلمها،ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين)) ولكن ابن سينا يعتقد ان الله لايدرك الجزئيات الا بوجه كلي لانه يعلمها علما مجردا عن الزمان .

ومن ذلك الصلاة ،فالاسلام يعدها ركنا من أركانه الخمسة ولكم ابن سينا لايراها واجبة على الخاصة والفلاسفة ،لانها شرعت لتحقيق هدف معين ،وهو الاقبال على الله والتأمل في ملكوته ،والفلاسفة يقضون اعمارهم في التفكير والتجميد ،وبيان جلال الحق وجماله .

وأخطر من ذلك ان الشريعة تنزه الخالق عن شبه المخلوقات اذ ليس كمثله شيء ،ولا تدركه الابصار ،وهو يدرك الابصار، وهو اللطيف الخبير . غير ان ابن سينا يخوض في نظرية الفيض ويؤوله على نحو يسلم الى القول بوحدة الوجود ،وان كل جزء في هذا الكون انما هو جزء من الله .

ولو انتقلنا الى آثاره الصوفية لوجدنا اشهر ماصنف في هذا الشأن كتاب الاشارات والتنبيهات ويعد هو وكتابا القانون والشفاء أحسن ما كتب وقد رسم في فصوله الثلاثة الاخيرة طريق السعادة فبين انه بمعرفة الله ،وللعارفين احوال ومقامات وكرامات وآيات ،فأفاض في كل ذلك .

وأعود هنا فأقول : لو ان ابن سينا صرف اوقاته التي شغلها بدراسة التصوف في معارفه العلمية لكان اجدى له وللانسانية ،ذلك ان معالم التصوف التي رسمها لا تجديد فيها ولا ابتكار ،اذ عمد الى تصوف الجنيد وامثاله فوصفه، واعانه اسلوبه على براعة الوصف . وهو ،على هذه البراعة

تجانف على أحد شقي التصوف ،وهو الرياضة الروحية والمجاهدات التعبدية ،وتوسع في شقه الاخر ،وهو المعرفة العقلية ،وخالف في حياته التطبيقية الشقين معا . وكان يفرط في شهواته الجنسية الى ان اثر ذلك في مزاجه ،وأورثه الصرع ،وكان يسرف في طعامه واحتسائه الخمرة حتى أصيب بالقولنج .

٣ ـ ثقافته الادبية :

مما زاد أعمال ابن سينا تأثيرا أنه دونها بأسلوب بارع ولغة واضحة ،وعبارات فصيحة ،فغطى ذلك كثيرا من شحطاته وقد اشتمل كتاب جامع البدائع على ثلاث رسائل أوبحوث له في تفسير سورة الصمد والمعوذتين ،وكثيرا ما ناظر ابو علي مخالفيه أو من يريد ان يقنعهم ،وتبدى ذلك في عنوانات مجموعة من موءلفاته اذ كانت تشتمل على كلمة الحجج او الاجوبة او الرد مثل الحجج العشر ،واجوبة عن مسائل البيروني ،والرد على مقالة الشيخ ابي الفرج بن الطيب . وكتب الحسين في اللغة ((لسان العرب)) ورسالة مختصرة في اسباب حدوث الحروف والاصوات وتشريح الحنجرة واللسان ،وهي رسالة طريفة لان صاحبها كان ذا حس لغوي وثروة لفظية ،وكان في الوقت نفسه طبيبا بارعا في تشريح الجهاز الصوتي ،يعرف ظاهره وباطنه وآزر ذلك فيه عقل وقاد يحلل الظواهر ويعللها ،ويحسن ترتيب مقولاته .

فهو اذ يتحدث عن سبب حدوث الصوت يحصره في تموج الهواء دفعة واحدة قوية سريعة ،ويجعل لذلك التموج سببين : اما القرع واما القلع . وهذا الهواء المتموج يصل الى صماخ الاذن ،وينتقل من ثم الى مركز الاحساس . ويجعل في نهاية مقالته مافصله خلالها ،فيقول :((فاذن العلة القريبة ـ كما أظن ـ هي التموج ،وللتموج علتان : قرع وقلع))(١)

ويبدو ان اعجاب ابن سينا بأستاذه ارسطو قد دفعه الى احتذائه في نقد الخطابة والشعر ،فأفرد للخطابة جزءا من كتابه الشفاء ،تحدث فيه عن حدها ومنفعتها ،ووسائل الاستدلال والاسلوب الخطابي . وعاد الى نقدها في كتابه الحكمة العروضية لدى تفصيله معاني كتاب ريطوريتا لارسطو ،ودائما يستحوذ

المنطق على نقده للخطابة ،ويغلب أسلوب التعقيد لا التحليل .

ويشبه الخطابة الشعر ،فهو عنده جزء من المنطق ،وقد لخص ابن سينا كتاب الشعر لارسطو في ثمانية فصول ،ضمنها كتابه الشفاء ،واعتمد الترجمة العربية التي قام بها يونس ابن متى القنائي ،غير انه يكتف بالتلخيص ،وانما شرح الغوامض وأورد بعض الامثلة الموضحة من الشعر العربي ،وربما أضاف في شروحه فكرا لم يتضمنها كتاب أرسطو ،كحديثه عن أقسام الشعر اليوناني .

ولابن سينا بحوث كثيرة ،غالبا ماكان يسميها رسائل منها رسالته في البحث على الذكر ،وهي مطبوعة مع جامع البدائع ، ولكن ليست كل رسائله بحوثا ،فان منها جوابات وخطابات تبادلها مع معارفه ،فقد كتب اليه صديق له رسالة يعرّب له فيها عن لوائح شوقه اليه ،وانشغال فكره حول كتابيه الاشارات والمسائل المشرقية ، اذ كان يظنهما مفقودين ... فطمأنه ابن سينا الى انه مازال يحتفظ بنسخة من الاشارات وأكثر المسائل المشرقية والقسم الضائع من هذه المسائل صغير يمكن تداركه .

ويعد ابو علي من القلة الذين اهتموا بتدوين سيرهم الذاتية ،ويبدو ان احد تلامذته سأله عنها فأملاها عليه وأخبره عن حاله منذ ولد في خرميشن ،احدى ضواحي بخاري ، ثم انتقاله اليها ،وعبه من كؤوس المعارف ،وشروعه بالتصنيف وتوفي ابوه فتولى بعض اعمال السلطان ،وبدأ التنقل بين مدن المشرق الاسلامي وتنقطع السيرة فجأة من دون ان تكتمل خطوطها العريضة ، فيسد هذه الثغرة تلميذه ابو عبيدالجوزجاني ويتكلم على سائر كتبه ،وتسنمه الوزارة لشمس الدولة ،وثورة الجند عليه ،وحياته العلمية واللاهية ،ووفاته بهمذان سنة ٤٢٨ هـ .

ومن طريف ماصنعه ابن سينا انه دون بعض مباحثه الفلسفية بأسلوب قصصي رامز ،كما صنع في حي بن يقظان ورسالة الطير ،وقد تأثر فيهما بفلسفة المشائين اليونان ، وعلى الرغم من انتقاصه مذهبهم في مقدمة كتابه منطق

المشرقيين ،وحي بن يقظان كناية عن العقل ،وهو الشخصية الاولى في هذه القصة القصيرة ،وتقوم معه شخصيات اخرى ترمز الى شهوات الانسان وغرائزه ،وقواه الخيالية والعقلية ، والى عقول الافلاك والاجرام السماوية ،وفي البداية نرى الفيلسوف ينطلق من بلاده ،أي من بدنه وأعضائه ،ومعه رغائبه المختلفة ،ليؤم بعض المنتزهات في عالم العقول ،وخلال طوافه قابل شيخا بهمي الطلعة متقدم السن هو حي ابن يقظان ،فتنعقد بينهما جلسة محادثة ،تذاكر فيها علم المنطق والغرائز التي تقوي العقل وتعمل على فتنته ،وقوى البدن المختلفة ،واخبره حي عن حدود الارض الثلاثة ،ورمز بها الى المركبات المحسوسة ،وهي مما يدرك الناس كنهه ،والهيولى والصورة اللتين تعرفان بالجد والتعليم والاستعانة بالمنطق ،وأخبره عن الانواع المعدنية والنباتية والحيوانية ،والافلاك السماوية التسعة : القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل وفلك البروج الاثني عشر ،والفلك التاسع .

وينهي ابن سينا قصته بهذا الحديث الرائع عن الخالق سبحانه وتعالى :((... ومن عزاه الى عرق فقد زل ،ومن ضمن الوفاء بمدحه فقد هذى ،قد فات قدر الوصاف عن وصفه وحادت عن سبيله الامثال ،فلا يستطيع ضاربها الا بتباين اعضاء . بل كله لحسنه وجه ،ولجوده يد ،يعفي حسنه آثار كل حسن، ويحقر كرمه نفاسة كل كرم ،ومتى هم بتأمله احد من الحافين حول بساطه غض الدهش طرفه فآب حسيرا ،يكاد بصره يختطف قبل النظر اليه ،وكان حسنه حجاب حسنه ،وكان ظهوره سبب بطونه وكان تجليه سبب خفائه ،كالشمس لو انتقبت يسيرا لاستعلنت كثيرا ،فلما أمعنت في التجلي احتجبت ،وكان نورها حجاب نورها .(١)

فهو سبحانه لايعزى الى مادة ولا صورة ،ولا فاعل ،لانه خالق كل شيء ،وقد قصر المدح ان يوفيه جميل صنعه ،وعجز الواصفون ان يحيطوا بجليل صفاته ،فهو تبارك وعلا ليس لمثله شيء جماله مطلق ،وسخاوءه غير مقيد ،فأيما جمال اذا قيس بجماله خبا ،وكل عطاء مهما استكثر اذا ماقورن بعطائه

تلاشى ،وان الملائكة المقربين لوهم احدهم بالنظر الى جمال الحق عز وجل اصابه الدهش ،وحجبه الانبهار ،مع انه ليس بينه وبين الجليل حجاب سوى روعة جمال الله ،فلا تملك الخلائق القدرة على تأمله ،ويقرب ابن سينا مايعنيه بالشمس ،فانها اذا كانت ساطعة متقدة منعت الابصار ان تتطلع اليها وتحدق فيها ،ولو انها حجبت بشيء من غمام ولو يسيرا لامكنهم عندئذ النظر ،واستجلاء معالمها ،وجل الحق ،وله الكمال كله والمثل الاعلى .

لقد ابتغى ابن سينا ان يبين منزلة العقل ومدى اهميته للانسان بالقياس الى غرائزه وشهواته ،فكشف محله ،وعلاقته بالعقول السماوية التي تحدث عنها فلاسفة اليونان ،وعلاقات تلك العقول بالعلة الفاعلة ،اي الله واجب الوجود .

وتمضي رسالة الطير على شاكلة حي بن يقظان في الرمزية الطاغية ،فتصور النفس البشرية وهي في صراعها المستمر مع الشهوات ،وكيف تحتاج الى مجاهدات ورياضيات دائمة لكبح جماحها .

وآخر فن أدبي نقف عليه من آثار شعره ،ويظهر أن ابن سينا لم يجمعه في ديوان ،فيسر ذلك ان يدخله زيف ،وان يفقد قسم منه ،وأوفر مجموعة وصلت الينا من شعره صنعها محب الدين الخطيب في تقدمته لمنطق المشرقيين ،وتدور كثرتها على الشيب والدنيا والخمرة والفخر والشعر التعليمي، والغزل والهجاء والفلسفة . وليست كلها في مستوى فني واحد، بل يمكن أن نسلكها في ثلاثة أصناف :

صنف تعليمي ،ونظم عادي ،وشعر مألوف .

ولابن سينا شعر تعليمي كثير في الطب والمنطق ،وحسبك أن تعلم أنه لخص كتابه القانون في منظومة رجزية من ألف وثلاثمائة وستة عشر بيتا مطلعها :

الحمد لله الملیك الواحد رب السموات العلي الماجد

ويمثل نظمه العادي قوله مفتخرا :

بأي مأثرة ينقاس بي احد بأي مكرمة تحكيني الامم

اني وان كانت الاقلام تخدمني كذاك يخدم كفي الصارم الخذم

والشبه واضح بين معاني بيته وتنطع ابي الطيب المتنبي الواسع في مثل قوله :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

أو قوله :

ان أكن معجبا فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مريد

أنا في أمة تداركها الله غريب لصالح في ثمود

غير ان صالحا كان نبعا فياضا بالخير والمنفعة والسعادة على قومه ،ولم يكن لسان انتفاش وانتفاخ عليهم ، ولكنه الغرور الارعن الذي يعمي ويصم ويجن الالباب .

على أن أبيات المتنبي موءازرة بأسلوب فني شديد الاسر ، بعيد التأثير ،وليس كذلك بيتا أبي علي ،وما هما الا كلام موزون لايثير في النفس الا صدودا عنه وعن تطاوله واغتراره .

أما شعره المألوف فتراه في الموضوعات التي تمس شغاف النفس وأعماق الاحاسيس ،مثل الحب او الكره والحسد ...

وبما انه كان يهوى الفلسفة ،الهمته هذه صناعة عينية في النفس ،وعلاقتها بالجسد ،وهو يشبه النفس فيها بيمامة تنزل - على كره منها - الى الجسد وتذرعالمها المصون في سالف تاريخها :

هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

محجوبة عن كل مقلة عارف وهي التي سفرت ولم تتبرقع

وصلت على كره اليك وربما كرهت لقاءك وهي ذات تفجع

والقصيدة من عيون شعره ،وقد اعجب بها قوم من اصحاب القريض ،وعارضها احمد شوقي ،وعادل الغضبان ،وخالفه الشاعر الاخير في آساس رأيه .

المصـــادر والمراجـــــــع

١ ـ د. أحمد فوءاد الاهواني : ابن سينا الطبعة الثانيـــــــة دار المعارف بمصـــر .

٢ ـ الحسين بن عبد الله بن سينا .

ـ أسباب حدوث الحروف ،حققه محب الدين الخطيب ،القاهرة ١٣٣٢/هـ .

ـ حي بن يقظان ،حققه احمد أمين ،دار المعارف بمصر .

ـ رسالة الطير ،مطبوعة ضمن جامع البدائع ،مطبعـــــــــة السعادة ١٩١٧ /م .

ـ الشفاء ،القاهرة ،وزارة التربية والتعليم ١٩٥٦ .

ـ الشفاء ،قسم الخطابة ،حققه د . محمد سليم سالـــــــــم القاهرة ١٩٥٤ .

ـ القانون ،القاهرة المطبعة العامرة ١٢٩٤/هـ .

٣ ـ د . حمودة غرابة : ابن سينا بين الدين والفلسفة مجمـــــع البحوث الاســلامية ١٩٧٢ .

٤ ـ د . شكري عياد : كتاب ارسطو طاليس في الشعر ،دار الكاتـــب العربي ،القاهرة ١٩٦٧ .

٥ ـ د . عبد الحليم محمود : التفكير الفلسفي في الاسلام ،الطبعـــة الثالثة ،مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٨ .

٦ ـ د . عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ،المطبعة الخامســـــة دار المعارف بمصـــر .

٧ ـ علي بن يوسف القفطي : اخبار العلماء بأخبار الحكماء ،مطبعـــة السعادة ١٣٢٦/هـ .

٨ ـ الكتاب الذهبي للمهرجان الالفي لذكرى ابن سينا ،القاهـــــرة مطبعة مصر ١٩٥٢ .